سينا موريا

رسولة السلام

مرّ سبعة عشر عاما قبل أن تزورنا سينا موريا مرّة ثانية.. كان ذلك مباشرة بعد حرب تشرين، وكانت قد مرت بنا أحداث كثيرة: الوحدة، استقرارنا في مصر مدة عام، وعودتنا الى سوريا، ثم لجوؤنا الى بلغاريا بعد محاولتين فاشلتين لاغتيال عفيف، ثم عودتنا الى سوريا بعد الإنفصال. وكنا قد انتقلنا الى بيتنا الجديد قرب جامع الكويتي، وكبرت أسرتي وأصبح لدي أربعة أبناء: سلام ويوسف ونضال ورفاه.. تلفنت مثل المرة السابقة من منزل أخيه صلاح وجاءت معها ابنته لتدلّها على البيت، وعادت أدراجها دون أن تدخل..

كانت امرأة أخرى ترتدي ثياب الراهبات البيضاء.. دخلت بعد أن سلمت علي الى الصالون، ووقفت مليا أمام صورته الكبيرة باللباس العسكري وهو يضحك. قالت: "هذا هو عفيف عندما رأيته لأول مرة!" كان في السوق، ولما سمعت قلقلة المفتاح بالباب أسرعت اليه. كان محملا بحاجات البيت كعادته كل يوم، فأخبرته بقدومها.. وضع الأغراض في المطبخ ودخل.. كان يرتدي معطفا طحينيا مضادا للمطر، وعلى رأسه قبعة فرو روسية، وشتان بين وجهه ذي البسمة الأسية وعينيه الطافحتين بخيبة الأمل، ووجهه في الصورة وعليه ابتسامة الثقة بالنفس والرغبة في تحدي العالم..

قالت له وهي تشد على يديه: "آه عفيف! تغيرت كثيرا!".

كان صوتها متهدجا من أثر الإنفعال، أما هو فدهش قليلا، مستريبا بالنوايا التي جاءت من أجلها وهي ترتدي ثياب الراهبات..

خلعت حذاءها الأبيض، وتربّعت على الديوان قائلة: "هكذا أرتاح أفضل ان لم يكن لديكما مانع".

قال عفيف: "لا أبدا خذي راحتك واعتبري نفسك في بيتك".

جاء أولادنا الواحد تلو الأخر من مدارسهم.. دخلت سلام وهي ترتدي قبعة فرو روسية.. كانت سبّاقة في وصولها لقرب مدرستها من المنزل، بل هي لصيقة به..

كان لسينا طبيعة مسرفة في المديح "آه سلام كم أصبحت فتاة جميلة! كنت أعرفك وأنت في الثانية من عمرك".. ذهب عفيف الى غرفة نومنا وخلع معطفه وقبعته وعاد ليشعل المدفأة التي لم نكن نشعلها الاّ عند المساء للتوفير، وجلست سلام على كرسي قبالتها تحدق فيها مستجلية من تكون هذه المرأة الغريبة.. قلت لها "انها صديقة لوالدك حين كان في فرنسا للدراسة" ووجدتها فرصة مناسبة لأذهب الى المطبخ وأضيف أطباقا عدا ماحضّرته لوجبة الغذاء, عند الصباح.. قليت شرحات وبطاطا وأعددت سباجيتي وكسترد.. وكنت أنتظر أن يفور الحليب كي أسقط فيه الكسترد المذاب والسكر والفانيلا وقد هيأت اللوز والفستق الحلبي المفروم لأزين وجهه بعد سكبه في الأوعية..

دخل عفيف المطبخ منفعلا ليشرح لي سبب قدومها:

-انها تقول بأن لديها صبيا أكبر من سلام بعامين وأنه أنهى دراسته الثانوية، وهي تريد له أن يتربى مع إخوته ويتعلم العربية!

فار الحليب وأغرق الفرن فأطفأت النار، لم يكن لدي ما أقوله..

-لماذا لم تخبرك عنه من قبل؟

-أخبرتني في المرة الماضية حين زارتنا ولكنني لم أصدقها!..

-والآن؟

-لا أدري!

-حتى لو كانت صادقة، أي تأثير لنا على شاب في المرحلة الجامعية، وأية فرصة له بالنجاح في جامعاتنا؟ نحن نريد أن نرسل أبناءنا الى الخارج ليتعلموا في بلد متطور، وهي تريد له أن يترك الفرصة المتاحة له في بلده ليأتي هنا الى بلد متخلف، ويضيع سنين طويلة قبل أن يكون مؤهلا لتعلم العربية.. انها تشقيه بهذ التصرف.. ان انتماءه لبلده وأمّه وليس الينا..

-قلت لها ذلك.. انها تريد أن تصحح وضعه وأن أعترف بأبوته.. لقد أصبح في السن التي لا تستطيع الاّ أن تصارحه بمن يكون والده، فهناك ضغط عليها منه، ومن أهلها، ومن ظروفها الإجتماعية.. على كل حال أنا أفهمتها بأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك

الآن.. فعلي أن لا أهز ثقة أولادي بي في هذه المرحلة الحرجة من أعمارهم، وسأفعل ذلك في الوقت المناسب..

كنت أعلم أن عفيف محرج بهذا الذي فاجأته به، فليس من السهل عليه أن يعترف بعلاقته الماضية بسينا موريا حتى لو كان واثقا من صدقها معه.. لقد بقي طوال تلك السنين لا يأتي على ذكرها، ولا يجد الوقت المناسب ليحدثني بما جرى من حديث بينه وبينها حين زارتنا في المرة الأولى.. فاذا كان بالإمكان حينذاك أن تزوّرعليه طفلا لدافع سياسي وهو في أوج قوته للتشهير به وحرفه عن نهجه التحرري فما الذي يدفعها الآن وقد فقد مركز القوة الذي كان له من قبل؟

وصل أبناؤنا الواحد تلو الآخر حسب بعد مدارسهم عن البيت، فكانت تدللهم وتتحبب اليهم، وتمدحهم.. قالت لسلام بأنها تشبه نفرتيتي، وليوسف بأنه يصلح أن يكون طبيبا، ولنضال بأنه ربما أصبح كوالده ضابطا في الجيش، ولرفاه التي كانت في الصف الخاص النموذجي الذي تدرس فيه المواد على طريقة دالتون، بأنها ستصبح فتاة متميزة بذكائها وجمالها.. كان أولادي يحيطون بها فرحين ويستلطفونها، حين دخلت لأدعو الجميع الى الغذاء.. قالت: "نحن فقدنا في بلادنا منذ زمن عادة اجتماع الأسرة على مائدة واحدة، والتفتت الي وقالت: "انني أغبطك، لديك أسرة رائعة!"

بعد الغذاء انصرف الأولاد لتحضير دروسهم، وبقينا وحدنا في الصالون. لم تبحث في حضوري شؤونها الخاصة.. أذكر أنني سألتها عن السلك الكهنوتي الذي تنتمي اليه فقالت: "أنا لا أتبع الأنماط التقليدية، بل أنتمي الى حركة عالمية تدعو للسلام" سألتها: "أهي الكويكرز؟" أجابت: "لا!" قلت: "أهي الماسونية؟" قالت: "لا!" وأردفت "لا أستطيع أن أخبرك شيئا عنها!" ولم تزد..

كنت منذ نكبة حزيران عام 67 قد عدت الى نشاطي الأدبي وأعدت كتابة روايتي "بستان البرتقال" بنضوج أكبر.. وأحببت أن أصنع لها مقدمة سياسية فأكببت على دراسة كل الكتب التي يبعث بها "أبو مروان" المسؤول الثقافي في حركة التحرير الفلسطينية. وكان زوجي قد اشترى في عام 65 الموسوعة البريطانية بريتانيكا والموسوعة الأدبية The Great Books of the Western World وهي نواة لثقافة غربية واسعة النطاق منذ عهد هومر حتى الوقت الحاضر في كتب الأدب والتاريخ والفلسفة والعلوم الدينية

والسياسية والإقتصادية، لأعظم كتاب العصور الماضية.. لقد أخذت بها، وكانت كلا الموسوعتين تغنياني عن كثير من المراجع من مكتبة جامعة دمشق التي أخذت تتطلب مني أن أكون حاضرة لقراءتها..

بعد حرب 67 أعار عفيف صديق له مسيحي "الكتاب المقدّس" فكنا أنا وهو نجلس على الديوان في غرفة الجلوس نقرأ من الكتب التي لدينا ويعلق كل منا على ما يقرأه..

لست أنسى أبدا تلك اللحظة التي أشرقت في ذهن عفيف وهو يقرأ الكتاب المقدس.. كان له دائما بعد عقلي يتجاوز عقل انسان بالغ الذكاء، يستقطب فيه ثقافته الغنية وتجاربه كلها فتكون له شبه إلهام سماوي.. قال لي:

-أتعلمين؟ ان الأديان بدأت كثورات اجتماعية ثم بلغت مرحلة القداسة، وخصوصا في حال نجاحها.. "اذهب الى فرعون إنه طغى" هذه بداية الرسالات السماوية، تحرير الإنسان من أنظمة العبودية.. وهي سلسلة على هذه الأرض التي كانت منذ فجر التاريخ قلب العالم النابض بالحياة: أول الحضارات، وأول العبوديات، وأول الرسالات التي كانت تستهدف رفع الظلم عن الإنسان المسحوق على هذه الأرض..

لقد أنار لي ذهني فجأة بشعاع لازلت أقتبس منه حتى اليوم مساري الفكري والأدبي.. السماء المسكونة بايل وبعل وباقي الآلهة الوثنية التي تكرس عبودية الإنسان للإنسان، أرادت أن تتدخل لإنقاذه من عبوديته وتوحيده، تحت مظلة اله واحد هو اله الحرية للإنسان الذي خلقه على مثاله..

ماكان هذا الوعي بإله غير منظور سهلا.. تطلب عبر التاريخ أنهارا من دماء البشر حتى استقرّ في أذهان البشر.. فإرادة القوة عاصفة هوجاء تدمر الحياة، ولا تترك للعقل والحكمة مجالا في مسيرة التاريخ..

شبّه لي ثورة موسى بثورة سبارتكوس التي قمعها بشراسة سادة روما الذين أبوا أن يتخلوا عن امتيازاتهم في اقتناء العبيد وتسخيرهم لخدمتهم، بل حشدوا الطريق من روما الى البحر بالأعواد التي صلبت عليها أجسادهم.. قال:

-ثورة سبارتكوس لم تنجح لأنه واجه وجماعته بحرا يغرقهم في عبابه، ولكن ثورة موسى نجحت لأن الصحراء أنقذته..

كان يريد أن يقوم بدراسة في هذا الموضوع فطلب مني أن أستعين بالموسوعة البريطانية في ترجمة بعض النصوص التي يريدها لبحثه.. واستهواني هذا العمل، وامتلأت صفحات دفتري بفقرات من هنا وهناك، وأخذت في قراءة الكتاب المقدس بإمعان، فبالرغم أن التوراة كتبت بعد سبعمائة عام من ثورة موسى، الاّ أنها تقص تجربة فريدة في نوعها وهي انتقال جماعات مسحوقة من العبودية الى مجتمع الأحرار، بعد أن شكلت رابطة هي الختان، وعهدا مع الإله أن لا يستعبد عبراني عبرانيا.. فكانت هذه الرابطة وهذا العهد بديلان عن رابطة الدم واللغة والتاريخ المشترك والأرض التي تميز مجتمعات الأحرار..

وقبل أن تتاح لعفيف أن يبدأ دراسته زاره صديق له تقدمي من الطائفة العلوية هو بدر مرجان.. سأله عن نشاطه الفكري فحدثه عن مشروعه الجديد فحذره بقوله:

-اياك أن تقوم ببحث في مثل هذه الخطورة، لأنك تكسب عداء كل الطوائف، وتتهم بالإلحاد ولا تغفر لك مجتمعاتنا الميتافيزيكية مثل هذا الأمر!

توقف عفيف عن الإهتمام بهذا الموضوع، وتابعت أنا بحثي لكتابة مقدمة لبستان البرتقال.. ولكن هذا البحث كبر معي وأنا أكتشف في كل يوم شيئا جديدا، حتى أصبح كتابا أعطيته هذا العنوان "إسرائيل من العبودية الى الإمبريالية" وألقيته مع بستان البرتقال أنتظر فترة صالحة لنشره..

جلست سينا موريا على الديوان في غرفة الجلوس وقالت لي: "ألديكم الكتاب المقدس؟ أجبتها بالإيجاب فلقد بقي عندنا الكتاب حين لم يرغب صاحبه في استرداده. قالت "أحضريه من فضلك!" فقمت الى خزانة الكتب وأحضرته، أردفت: "أريدك أن تقرئي من سفر التكوين الفصل الثاني عشر بصوت عال.. فتحت الكتاب فاذا بها الآيات التي يعد الله بها بني اسرائيل بامتلاك أرض فلسطين..

لو لم أكن قد قمت ببحثي السابق لكان أسقط في يدي أمام حجة المبشرين بأن عودة اليهود الى أرضهم هي أمر الهي.. وانني ان كنت أومن بالله واليوم الآخر فعلي أن أسلّم بهذا الحق الإلهي لبني اسرائيل.. قلت لها:

-ان سلّمنا بأن كل ما جاء في التوراة هو من عند الله، ولم تعبث به يد بشر، لكنت قلت بأن الأرض الموعودة كانت من حق الثوار الأوائل الذين خرجوا مع موسى وليست

من حق ذراريهم الذين انحرفوا عن عبادة الله الواحد وعادوا الى عبادة الأوثان والربا واستعباد بعضهم بعضا.. التوراة مليئة بالشواهد على هذه الإنحرافات ومليئة بنذرالمصلحين بينهم، والأنبياء الذين تنبؤوا بزوالهم لأنهم حادوا عن الطريق المستقيم!

هل قرأت نبوءة أشعيا؟ هل قرأت..الخ؟ الوعد الإلهي ليس أبديا، والله قادر أن يبدل قوما بقوم آخرين لوفسقوا وجاروا، فالمجتمعات الدينية لا يمكن تماسكها الا ّبالتزام القيم التي توحدّها وتجمع بينها، وتنهار ان حادت عنها..

كانت دهشة من حديثي تردد I see, I see وكان عفيف في الغرفة المجاورة يشرح لنضال مسألة رياضية فأردفت:

–لم تتوقف الرسالات السماوية عند توراة اليهود، جاءت المسيحية، وجاء الإسلام.. هل تحسبين بأن المسلمين أفرغوا أرض فلسطين من سكانها واحتلوها؟ ان هذه الجماعات هي نفسها التي دخلت الإسلام، ومنها من بقي على دينه.. ان الشعب الفلسطيني الذي يقتلع من جذوره التاريخية اليوم هم أحفاد اليهود الأوائل، لا الأغراب الذين تهوّدوا بعد ألفي عام من ثورة موسى، ويدّعون الحق الإلهي بأرض فلسطين!.. وجمت ولم تحر جوابا، ولم يلبث أن عاد عفيف وانقطع ما بيننا من حديث.. بقيت في زيارتنا بضعة أيام.. في اليوم التالي تحدّثنا في السياسة.. اقترحت على عفيف حلا لتسوية القضية الفلسطينية وهي توطين اللاجئين في الأراضي التي احتلتها إسرائيل من الدول العربية عام 67 وقالت ان رضي الفلسطينيون والعرب مثل هذا الحل، فان العالم كله سيقدم المساعدات لبناء دولة عربية فلسطينية في سيناء والجولان وجنوب لبنان.. وأضافت بأن هذا الإقتراح هو من بنات أفكارها، وأنه لقي قبولا في البيت الأبيض..

* * *

مشروع السلام

كان مشروع السلام الذي عرضته على عفيف هو ما يلي:

1- توطين اللاجئين الفلسطينيين في الأراضي العربية التي احتلتها اسرائيل عام 67 فتكون حزام أمان بين الدول العربية واسرائيل..

2- نزع السلاح من كافة الأطراف في الشرق الأوسط، لأن هذه المنطقة ما لم تستقر، قد تجر حربا عالمية ثالثة..

3- اعتراف العرب بشكل واضح ورسمي بحق اسرائيل في الوجود، في سلام ضمن حدود معروفة بوضوح وآمنة..

4- تقوم الدول كافة بتمويل مشروع توطين الفلسطينيين في الأراضي التي تنسحب منها اسرائيل، وتكون لهم وطنا بديلا.. وأن هذه الفرصة لو ذهبت، فانها لن تتكرر أبدا بالنسبة للقضية الفلسطينية..

كانت عظيمة التفاؤل بأن مثل هذا الحل سيرضي جميع الأطراف المعنية ويوفر إراقة دماء كثيرة لا ضرورة لها، لأن التسوية السلمية هي في صالح جميع الدول في الغرب كما في الشرق.. ومن يقف في طريقها يتبع قضية خاسرة، يتردى فيها الوضع الى أسوأ، والخلافات القائمة قد تؤدي الى استخدام أسلحة نووية في مجابهة بين الدولتين العظميين.. قال لها عفيف:

-لايمكن أن تجدي شخصا يقبل بهذه التنازلات لصالح إسرائيل!

تحدثت عن السلام وقالت:

-لايمكن الاّ أن يسود السلام في هذه المنطقة من العالم، لأن الله يريد ذلك.. أن ينتزع السلاح من هذه المنطقة، ويتعايش الشعبان معا، وتستقر الأحوال، فهما أبناء عمومة، وجدهما ابراهيم.. وأخذت تقص سيرة ابراهيم وزواجه من سارة ثم هاجر اللتين يشكل نسلهما هذين الشعبين.. قال عفيف:

-لا يمكن أن تستقر الأحوال الاّ بعودة اللاجئين الى ديارهم، وليس في أراض عربية احتلتها اسرائيل!..

-لتكن هذه بداية لدولة كبرى ينصهر فيها الشعبان معا في مقبل الزمن، فيتوقف تدخل العرب في شأن فلسطين.. هذه فرصة ذهبية لإحلال السلام. وان فقدت لن تستردّ أبدا! وأخذت تحلم بمجمّع للعبادة في دار السلام، يجمع الكنيس والكنيسة والمسجد، متجاورة، وكل طائفة لها مدخلها، كرمز لوحدة الأديان، وتعايشها معا!..

* * *